الآخرُ الشرقيُّ في أدبياتِ الرحالةِ الأوربيين

فارس عزيز حمودي *

تأريخ التقديم: 2022/9/13 تأريخ القبول: 2022/10/1

المستخلص:

تتلخّص فكرةُ البحث (الآخرُ الشرقي في أدبياتِ الرحالةِ الأوربيين).

أوَّلًا: في التعريف: بنشوء ثنائية الأنا والآخر تاريخياً؛ فيما يتعلّق ببعدِهما الحضاري؛ ضمن علاقة الشرق بالآخر الأوربي، والمَعنيُّ بالشرق هنا الشرقُ الأوسط.

ثانيًا: يسلّط البحثُ الضوءَ على فكرةِ الآخر في كتاباتِ الرحالة الأوربيين، مع مجموعة من الإنجازات والتصورات التي تضمّنها هذا المنحى الأدبي، المتمثّل برسائل الرحالة الأوربيين عن الشرق وتقاريرهم وكُتبِهم، ويوضح كيف اختصرت أدبياتُ الرحالة الأوربيين الشرقَ، وحوّلته إلى معطىً حالمٍ؛ يلبّي حاجة الأوربيين إلى نوع من المتعة والابتعاد عن صرامة الواقع المادي، لكن على حساب حقيقة الشرق؛ التي دأب كثيرٌ مِن الرحالة على اختصارها، والتركيز على أَبعدها الرومانسية؛ مع طمس واقع الشرق ومعاناته الحقيقية آنذاك.

ثالثًا: يسعى البحثُ إلى الكشف عن حجم ما تركته كتابات الرحالة من معلوماتٍ وتصوراتٍ ومواقف عمِلت على تكوين ثيمةً ثابتة عن الشرق (بوصفه آخر مُفارقًا) في عموم الذهن الأوربي، معبأة بحمولاتٍ إيديولوجية ودينية وتاريخية رسّخت ثنائية سلبية بين الشرق والغرب؛ تقوم على الإقصاء والتهميش.

الكلمات المفتاحية: دين، تاريخ، رحلة.

المُقدِّمة

تُعدُّ قضية الأنا والآخر مِن الموضوعاتِ الحساسةِ والمهمة في العصر الحديث؛ نظراً لعوامل كثيرة باتت تشكّل سماتِ العصر، ومن هذه السمات انتشارُ المعرفة وسهولة التواصل بين الشعوب والجماعات؛ ممّا يعزّز نقل التصوراتِ والمواقف تجاه

* أُستاذ مساعد/قسم اللغة العربيَّة/كلية الآداب/جامعة الموصل.

الآخرين سلباً وإيجابًا. فضلاً عن التحولات والتغيرات السياسية والثقافية التي أحدثت إرباكاً شديدَ الأثر في مستوى علاقات الشعوب؛ ولاسيَّما في ظل التأثيرات الإعلامية الواسعة، مما يؤثر سلبًا على السلم العالمي.

إنّ دراسةَ مفهوم الآخر وتحليله يسهم في الكشف عن أهميتِه في تشكيل علاقات سليمة يفترض أنْ تجمعَ الشعوب والجماعات؛ عِبر تعزيز الروابط الايجابية المتضمنة في الاختلافات الثقافية والدينية، وفي الوقت نفسه الكشف عن الجوانب السلبية فيها؛ وبثّ الوعي بين المجتمعات للتحذير مِن آثار الإقصاء على السِلم العالمي.

ويصف البحث كيف تشكّلت صورةُ الآخر الشرقي في أدبيات الرحالة الأوربيين الَّتي قامت في الغالب على المُمايزة والدونية؛ مع أنّ هناك رحّالة نابهين كانوا أكثر موضوعية ووعياً وإنصافاً.

إنّ تحديدَ المنابع التي استقى منها الرحالة الأوربيون مواقفهم مِن الآخر الشرقي قضية معقدة ومتشعبة، لكن العنصر العقائدي والرواية التاريخية وحمولاتها الدينية بقيت مِن أكثر العوامل تأثيراً في تحديد صورة الآخر الشرقي، فضلًا عن الدوافع العرقية والسياسية التي كانت مسوغات لهيمنة القوي؛ متمثلا بالطروحات الاستعمارية.

والبحث لا يستهدف إبداء الجوانب السلبية ولا يتعدُّ بالإدانةِ؛ بقدر ما يبغي الكشف عن آلية اشتغال الممايزة وتفشي الكراهية في خطاب قسمٍ من الرحّالة الأوربيين، ومن ثُمَّ الوعي بخطورة الممايزة ومعالجتها؛ كي تتشكل بين المجتمعات ألفةٌ وترابط؛ بدل التوتر والعدائية؛ لأَنَّ إرث الرحالة الأوربيين له تأثيرٌ وحضور في عمومِ المخيلة الأوربية لم يزل منتشراً؛ نظراً لِما فيه مِن عناصر الغرائبية والتشويق والجانب القصصي والإثارة.

ومن هنا يكون لأدبِ الرحلة خطورة وأثر وطابع انتشاري وشعبي مؤثر؛ ينبغي الحذر من شططه السلبي، والوعي بتأثيره الذي يقوم على العنصرية والدونية أحيانا؛ وفي المقابل دعم توجهه الإِيجابي المفيد.

ويحلل البحثُ هذه الأبعاد وينتخب عينات مختلفة لغرض تبيــان حمولاتِهــا وطريقــة انتشارها ووصف المظاهر والصور التي شاهدها أو رسمها أو اختلَقها الرحالــة؛ ثــمّ عوّل عليها واعتمدها في رسم صورة الآخر الشرقي في الذهن الغربي. وهذه الصورة بحاجةٍ التي توضيح وتعديل بالوعي بحمولاتها وسلبياتها وطبيعة خطابها.

ومِن نافلةِ القولُ أنّ البحثُ لا يركيزَ على الجانبَ السلبي؛ علــى حســاب الجانب الإيجابي في منتجات الرحالة الأوربيين، لكن الجانب الايجــابي لــه دراســاتُه ومكانته.

جرى تقديم مِهاد أولي عن مفهوم الأنا والآخر لفهم اشتغال ثنائية الأنــا والآخر في الذهن الأوربي.

البحث

مِهاد أولي عن مفهوم الأنا والآخر

لمفهومِ الآخر علاقةٌ وطيدة بمفهوم الغيْر، وله أبعادٌ سلبية في كثير مــن الأحيان؛ لأَنَّه يشير إلى كيانٍ دأبهُ التميّز، وتتبعُه مواقفُ وتصنيفات سلبية.

وتستعمل كلمة غير في المعاجم العربية بمعنى سوى أو خلا، ولها معنيــان: الأول زماني ويدلُّ على التقدم والتأخر، والثاني على المغــايرة. وورد فــي المعجــم الوسيط: " تأخّر عنه أي جاء بعده. وتقهقرَ عنه؛ أيْ لم يصــل إليــه، والآخــر أحــدُ الشيئين، ويكونان مِن جنس واحد "[1].

وفي المعجم الفرنسي، يأخذ مفهوم الآخر بعداً أوسع؛ يدلٌ علــى كــلِّ مــا يختلف عن الموضوع وعن الذات؛ ويشمل الاختلاف في مستوى الأشياء، أمّا مفهــومُ الغير، فهو تضييقُ معنى الآخر وحصرُه في مَجال الإنسان "[2].

1 إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر تركيــا، ص9. (دُ. ن). د. ت)،

2 الذات والآخر في الشرق والغرب، صور وإشكالات، حسن شحاته، ص17.دار العالم العربي، ط1، القاهرة ، 2008.

وفي اللغة الإنكليزية " يدلُ لفظ الآخر Other من حيث كونه كياناً يختلف عن الـذات المفردة (الأنا، النفس Self) وعن الذات الجماعية. وهو خلاصة العلاقةِ الجوهريـة والظاهرية لهوية الشخصية. ويدل أيضا على المُؤاخرة الجغرافية للإنسان "[1].

وأمّا في المعجم الفلسفي فموضوعُ الآخرِ واسعٌ ومعقّد، وغالباً ما يتبع التصنيفَ المدرسي، ولكنْه بالتالي: " اسمٌ خاص للمغاير؛ ويقال للأشخاص والأشياء والأعـداد، ويطلق على المغايرِ في الماهية، ويقابلُه الأنا "[2].

وتتمثل العلاقةُ بين *الأنا والآخر*، كالتمثلِ بين الذات العارفة وموضوع المعرفـة، و" هذا يدفعنا إلى طرحِ التساؤل: هل نعرف الغير بوصفه ذاتاً أم موضوعاً؟

في اعتقاد سارتر الغيرُ: ذلك الذي ليس أنا، ولستُ هو. لكنْ بمجرد الدخول في علاقة معرفيّة معه يتمُّ تحويلُه إلى موضوعٍ، أيْ أننا ننظر إليه كشيءٍ خـارج عـن ذواتِنـا ونسلب منه معاني الوعي والحرية والإرادة. هكذا تبدو كينونة الغيـر مُتعاليـةً عـن مجال إدراكنا "[3]. والحالُ أنّ ما ذهب إليه سارتر فيه إعمامٌ مُخلٌ نسبياً؛ فليس هنـاك بعدٌ قطعيٌّ بين الذات والموضوع، ولا يعني النظرُ في موضوعِ الآخر ترسيخ مغايرتَـه وإخراجه تماماً عن ذاتنا.

جرى توظيفُ المفارقةِ بين الذات والآخر توظيفاً واسعاً على مدى التاريخ؛ لاسيما في موضوع الشرق والغرب، واسهم هذا التوظيفُ في تكوين صـورةٍ مُنمطـة بـين الغرب والشرق كليهما؛ فـ " تحوّل كلٌّ مِن الغرب والشرق إلى مفهـومٍ ميتـافيزيقي يقوم على تمركزٍ ذاتيٍّ محاطٍ بتمركزات أخرى، نُسجت مكوناتهـا بأشـكال متخيّلـة ونمطية تستحضرُ إمكانات التهميش والإلغاء؛ ليفقـدَ المفهـوم أيَّ احتمـال للجـدلِ والتواصل ... وهذا يقتضى الوقوف عند ما أنتجه الخطابُ من طـرقٍ لإدراك الآخـر،

---

1 New Fontana Dictionary of Modern Thought, The Other, The, Oxford. Third Edition, (1999) p. 620.

2 المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، د. عبد المنعم الحنفي، ص29. ط1. مكتبة مدبولي، 2000.

3 الذات والآخر في الشرق والغرب، م.ن. ص19

الأمرُ الذي يطرح أسئلةً مُحرجةً أمامَ الفِكر المنتِج له، في مرحلة تختلط فيها الـرؤى والتصوراتُ بالمصالحِ والرغبةِ في السيطرة "[1].

وفي الواقعِ فإنَّ هذا التنميطُ جاء حصيلةَ أحـداثٍ واختلافـاتٍ عقائديـةٍ وحضارية وحروب؛ عمّت الشرق والغرب؛ وتمخّضت عنها نصوصٌ صـارت بحكـم المرجِع، فضلاً التغيرات والتبدّلات الجغرافيةِ والسياسية التي تضمّنها هـذا التحـوّل؛ كالحروبِ الصليبية في الماضي، أو الاجتياح الاستعماري في العصر الحـديث؛ الَّتـي احتاجت إلى تصنيفِ (آخرٍ) وسِمَتْ مَعالمُهُ بصورةٍ تهدف إلى خدمةِ تلك التحولات.

وفي ظلِّ هذه الأوضاع كان للرحالةِ والمستكشفين ثـم المستشـرقين دورٌ بالغٌ في تثبيتِ صورة الآخر الشرقي في الذهن الأوربي؛ عِبر طروحات مُستمدةٍ مـن ذلك التداخل الجدلي بين مفهومي الأنا والآخر؛ وانعكست وتمثّلتْ في أدبيات الرحالـة والمستشرقين والرسامين.

في التطوّر التاريخي لمفهوم الآخر لدى الرحالة الأوربيين:

خضعت فكرةُ الآخر الشرقي لتطوراتٍ تاريخية عمّتْ العـالمَ القـديم، ومـن هـذه التطورات ما خضع لأحكامٍ مسبقة اعتنقها الغربُ عن الشرق جهلاً أو عمداً، وأخـذت تلك التصورات بعداً تراكمياً عزّزها التناحرُ السياسي والديني. " وتنبع هـذه القضـية من تجسّدِ تلك التصورات في تشكيلة مِن أجناس الكتابة: كالأعمالِ الفلسفية والروايـةِ والشعر، وأدب الرحلات. وفي الحالات التي عُرِض فيهـا الشـرق بكيفيـة تتجـاوز الصورة التي تختزله إلى حكايات غرائبية، فثمة شعور كامنٍ أفضى إلى التمييز بـين هاتين الهويتين. فالشرقُ مبهمٌ ومتخلّفٌ، والغرب ذكورة، والشـرق أنوثـة. ولاحقـاً قدّمت هذه التمنيطات تبريراً للإمبريالية ومنحتها الحق في السيطرة على الآخر "[2].

---

1 م.ن. ص 26- 27.

2 التصورات الجنسية عن الشرق الأوسط. البريطانيون والفرنسيون والعرب. ديريك هوبوت. ص: 15. ترجمة. ناصر مصطفى ط1. هيئة ابو ضبي للكتاب. 2009.

ومنذ عصورٍ متقدمةٍ كان لحضارةِ اليونان أثرٌ كبيرٌ في ترسيخ مفهوم ثنائية الشرق والغرب. لكنه لم يتجاوز غالبا البعدَ الجغرافي؛ ويدخل نسبياً في إطار ذي بعدٍ حضاري.

ومفهومٌ الآخر لدى اليونان " غالبا ما شابَه الكثيرُ مِن سوء الفهم، لأنّ نظرة اليونان إلى الشرق كانت تختلف جذرياً عن نظرةِ أوربا في العصور الحديثة؛ بل أنّ نظرةَ اليونان لأوربا نفسِها غيرُ ما ادّعاه الغربيون في العصورِ اللاحقة. ثم تطوَّر الحالُ إلى الإمبراطورية الرومانية التي بدت فيها مفاهيم الآخرية أكثرَ بروزاً وتحديداً، بل أكثر حدةً وتعسّفاً؛ حتى مع المكونات الأوربية الأخرى بما في ذلك الإرث اليوناني ذاته.

ومنذ أنْ تحوّل الشرقُ إلى الإسلام حصل تنازعُ وجودٍ اتخذ له مسوغاتٍ عقائدية اعتمدت على مصادرةِ الآخر؛ ومحاولة الحطّ منه على مستويات مختلفة، " وقد أورد نورمان دانييل في كتابه «الإسلام والغرب أولَ حادثةٍ مؤرّخة أثار فيها الأوربيون في إسبانيا هذه التصورات، إذ تحدّثْ «جماعة الشهداء القرطبية التي تأسّست في القرن التاسع المسلمين بظهورها على الملأ مشهرةً بشخص النبي ﷺ في الأماكن العامة "[1]. وعليه فليس مِن الغريبِ انتشارُ فكرة الإساءة الإسلام في ذلك المناخ، ولربما من غير الغريب أنْ يأخذ كلّ أوصاف الإساءة في المخيلة الشعبية الأوربية.

وقد استحوذت الحملاتُ الصليبية الخمس خلال القرون (1096-1291) على المخيلة الأوروبية. "وكان هدفها المُعلنُ استردادَ الأرض المقدسة، لكنَّ الحقيقة ثمة ذريعة قصدت نهب ثروة الشرق، وتوحيد طبقةَ النبلاء في أوروبا، التي كانت منهمكة في التنافس والتناحر. ولم يكن الذين شكلوا قِوام الحملات الصليبية يعرفون شيئاً عن الإسلام، وانحصرت أفكارهم في الاعتقاد بأن معتنقيه وثنيون وهراطقة.

Norman. Daniel revised ed. (Oxford, 1933). P. 16- Islam and the west, 1 18.

" وبهذا تهيأ مادة وفيرةٌ لأدب أوروبي غرائبي؛ كالروايات، والشعر، والأناشيد. وخلدت أهازيج إلــ ترو بادور، التي تصور بسالة الجنود وهم يتغنون بها في طريق عودتهم من تلك الحملات، رامىن وراء ظهورهم أعمالَهم الوحشية "[1].

ثم ستشهد أدبياتُ أوربا تحولاً مفصلياً يختلف من حيث شكله عما افرزه إرث الحروب الصليبية. حدث ذلك منذ دخول الأتراك منافسا شرساً لمصالح الأوربيين؛ فتغيرت ثمية الآخر الشرقي بوصفه مسلماً أو عربياً؛ لتعني تركياً أو عثمانياً. وانعكست هذه الحالة على مجمل ما كتب عن الشرق؛ بما في ذلك كتابات الرحالة؛ ناهيك عن الأدباء والشعراء واللاهوتيين.

وكان للحضور العثماني ثقلُه الكبير في تحديد العلاقةِ بين الشرق والغرب؛ لكنه أخذ ما يشبه الفِصام الذي واكب الحروب الصليبية. وهكذا برزت مفاهيم مختلفة عن الآخرية سواء في الشرق أم في الغرب. وهذه (الآخريّة) غالباً ما كانت ذات حمولاتٍ نفسيةٍ ترسخ الشُّقة بين الشرق والغرب، ثم أدتْ إلى حالات سلبية انعكست على ثقافاتِ الشعوب وعلاقاتِ بعضها ببعض "[2].

انضمّ العثمانيون إلى المشهد بوصفِهم مناوئينَ للحضارة الأوروبية، ووطئت جيوشُهم الترابَ الأوروبي، في خطوةٍ معادلة لطردِ المسلمين مِن إسبانيا أواخر القرن الخامس عشر، " ثم تنامت القوةُ العثمانية لتصلَ مدياتِها إلى ضواحي فِيِنّا. وقد دامت تلك المجابهة بين الأوروبيين والأتراك حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، التي خسرت فيها الإمبراطوريةُ العثمانية جميع أراضيها في أوروبا. وهكذا، تلّبس التهديدُ الإسلامي شكلاً تركيّا في عقول الأوروبين، فالمسلمون جميعهم (آخر تركي) وإنْ تخللهم خليطٌ من أعراقٍ أخرى كالعرب والفرس والبربر "[3].

إنّ تلك الحمولاتِ – التي عمّتْ ولقرونٍ طويلة الذهن الأوربي عن الشرق – كان لابد لها من عمل يضمّها ويؤصّل لها في أدبياتٍ وتواريخَ مُكثفة. وبالفعل حدث

1 التصورات الجنسية عن الشرق الأوسط. م.ن. ص: 19.

2 تطوّر صورة الآخر العثماني في كتابات المستشرقين والمؤرخين الأوربيين. محمد علي محمد عفين. آداب الرافدين. العراق. العدد: 87. 2021.

3 التصورات الجنسية عن الشرق الأوسط. م.ن. ص: 20.

ذلك في عملٍ ضخم غطي مساحةً واسعة من الشرق ظهر في فرنسا عام 1697؛ إلا وهو مكتبة الشرق لــ بارتملى دىربىلو، وهو مَرجعٌ مهمٌ في بابــهِ؛ وعنــه يقــول ادوارد سعيد: " لقد مكّن هذا العملُ أوروبا من احتواء الشرق وشرقنته "[1] إذ جمــع معلومات كثيرة عن الشرق، ووضعها بيد الأوروبيين. فكانت مَرجعاً لمَن أراد التعامل مع الشرق؛ سواء في كتاباته أو رحلاته. وأسهم ذلك العمل في ترسيخ معنى الآخــر الشرقي في الذهن الأوربي.

والواقع لم يكن كتاب «مكتبة الشرق» عملا حصرياً عن حيــاة النبــي محمــد ﷺ أو تاريخاً للمسلمين " ولم يكن الشرق فيه محصوراً في تلك البقعة التــي عــاش فيهــا العرب والمسلمون، بل غدا الشرقُ فيه متخيلَاً مُكمّلاً في الوعي الأوروبي، ومهيّأ لأنْ يصبح ميداناً للتخيلات الأوروبية.

كان أنطوان غالان Antoine Galland قد " عيّن في مقدمته للكتاب حدودَ الشــرق، بوصفه المكان الذي يعيش فيه العرب والمسلمون؛ إذ تحدث الوقائع الأكثــر تهويمــا ورومانتيكية. وهكذا يكون غالان قد أضاف إلى الصورة السائدة عن الشرق بعداً آخر يتمثّل في سِحر الشرق الغرائبي، وتحققه الرومانتيكي "[2].

وغالان هذا مِن أوائل مترجمي ألف ليلة وليلة، ومَبعوثُ الدبلوماسية الفرنسية فــي القسطنطينية؛ وله عن الشرق كتاباتٌ واسعةٌ وتعكس مذكراته انبهاره بالمخطوطــات الشرقية. و" لقد تــأثر برحالــة أوروبيــين ســبقوه إلــى الشــرق، وقابــل جــان شاردان[3] Chardin 1643- 1713 م، وهو الآخرُ رحالةٌ فرنسي كتب عن فارس وتركيا والهند. ومع أنّ شاردان كان رحّالة مجدّاً إلا أنه لم يستطع أنْ يكــون كامــلَ النزاهة "[4].

---

1 Orientalism. Edward Said. p.65. Vintage books. A division of Random House. New York. First Edition. 1979.

2 التصورات الجنسية عن الشرق الأوسط. م.ن. ص: 21.

3 موسوعة المساشرقين. عبد الرحمن بدوي. ص 88. دار العلم للملايين. بيروت. ط3. 1993.

4 الجذور الشرقية للرومانسية الغربية. فارس عزيز المدرس. ص97. مجلة آداب الرافدين. عــدد 82. جامعة الموصل. العراق. 2020.

أصدر غالان بين عام 1704 و 1717 أولَ ترجمةٍ أوروبية لكتاب ألف ليلة وليلة، والترجمة بجملتِها تُعد أهمَّ المنابع التي استقى منها الرحالة المتقدمون أخيلتَهم وخلطوها بما شاهدوه واستخدموها في شحذ قصصهم أو وصف رحلاتهم. وفي الوقت الذي كان يشدّد فيها – عبر تقديمه للمكتبة الشرقية – على البعد النفعي في دراسة الشرق، فإنه بسط مقاربةً مختلفة في ترجمته لليالي .... إذ كان له مَلكةٌ مكنته مِن صوغ هذه الحكايات على نحو يوائم الذائقة الأوروبية، فأمست مذ ذاك رائجةَ الصيت عبر أشكال شتى "[1].

وبتأثيرٍ مِن غالان لجأ كثيرٌ مِن الرحالةِ إلى النسج على منواله؛ لاسيما التركيز على العنصر النسوي الذي تسبَّب في رسم ثيمة منتشرة في الذهن الأوربي عن عالم الآخر العثماني، الذي عُدُّ مناوئاً سياسياً ودينياً.

وقد شارك في هذا الأمر نساءٌ رحّالاتٌ مستغلات قدرتهنَّ على التغلغل في بيئة النساء ونقل معلومات عنهن وإضافة أخرى على سبيل التشويق. ومن هؤلاء الليدي مونتاغو (1689–1762) وهي رحالة و " زوجة «إدوار دورتلى مونتاغوه؛ السفير في إسطنبول، وقد كتبت سلسلةً مِن الرسائل في تلك الفترة (17161718)، متخذةً من المجتمع العثماني مادةً لتلك الرسائل التي بعثتْ بها إلى أصدقائها، وكانت الرسائل ترسل بصورةٍ مُسهبة عن حياة الحريم، والحمام التركي، والبلاط الملكي؛ مُعرجةً بين حين وآخر على مَشاهدٍ من الحياة اليومية [2]. وكأن صورة الآخر الشرقي نسخة طبق الأصلِ للشخصيات الواردة في قصص الليالي. وعلى شاكلة عشرات آخرين من الرحالة ذلك العصر " كتبت السيدة ميري لتثبت أنه وباستثناء مشاهد السحرة طرحت الليالي الصورةَ واقعية للطباع والعادات في تركيا "[3]. وهذا الحالُ امتدَّ حتى بعد أفولِ نجم الدولة العثمانية، ودخول مجتمعات الشرق الأوسط عصر الاستعمار الأوربي؛ حتى في الأقطار التي لا تقع في آسيا.

1 التصورات الجنسية عن الشرق الأوسط. ص: 20.

2 م.ن. ص: 26.

3 ألف ليلة وليلة في نظرية الأدب الإنكليزي. محسن جاسم الموسوي. ص: 23. منشورات: مركز الانماء القومي. بيروت. ط1. د.ت.

والحالُ لم تقتصر عمليات الاستكشاف والرحلة إلى الشرق بدولِ أسيا، بل توسّعت لتشمل أفريقيا أيضا؛ فأفريقيا كانت لها نصيبٌ واسعٌ مِن نشاط الرحالة على اختلاف مشاربهم وأهدافهم؛ لاسيما بعد تنامي حركة الاستعمار الحديث. ونشاط الرحلات الأوربية إلى أفريقيا بدأ متأخراً، وله أسباب تختلف نسبياً عن نشاطهِم في الشرق الأوسط الآسيوي، ويتعلّق بالتغيرات السياسية والاقتصادية التي حصلت في أوربا ذاتها.

كانت " عملية نقل الرقيق مِن شواطئ أفريقيا إلى الأمريكتين، الَّتي استمرت ثلاثة قرون قد تعرّضت لتراجعٍ بعد استقلال الولايات المتحدة في 1776، الأمرُ الذي حدا ببريطانيا إلى التفتيش عن بدائل، لاسيما وأنّ الثورة الصناعية بدأت تتطلب موادّ خام، فبادرت إلى حل مشكلة ضحالة الرصيد المعرفي الأوروبي، ودعتْ إلى ما يسمى بـ اكتشاف القارة الإفريقية، وأسّست جمعياتٍ تتولى اكتشاف الأجزاء الداخلية منها عام 1788.

وبدأت الجمعيات العمل على جمع المعلومات بأشخاص ليسوا بريطانيين، بل مغامرين وعسكريين. وتزايدت أعداد الرحالين وتطورت وسائلهم، وتنامت المادة التي حصلوا عليها. وبرز في تلك الرحلات شخصيات مثل هىنرىش بارت 1821 - 1865, وغوستاف ناختبكال الذي ألف كتابه (الصحراء وبلاد السودان) "[1]، رصد فيه أدقّ مفاصل المجتمعات التي لبث فيها، ولكنه رسم معالم لـ آخر شرقي مِن وجهة تحليلاته ومشاهداته هو.

وقد عُدتْ رحلة الرحالةِ مونغو بارك فتحاً في تاريخ الرحلات إلى الداخل الأفريقي. إلا أنّ ما قدمه الرحالةُ المتأخرون الذين اهتموا بالوثائق والمعلومات الإثنوغرافية لا يمكن مقارنته بالمعلومات السطحية وغير المترابطة التي صدرت عن رحالةِ عصر

1 الرحالة الألمانى غوستاف ناختيغال 1834 - 1885 ورؤيته. للوجود العربي. أ.د. عماد الدين غانم. مجلة الوثائق والمخطوطات - المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية. ص 13. 2008.

التنوير "[1]. وهكذا نرى التوسّعَ الأفقي لأدب الرحالة، ونلحظ التنوعَ في الأساليب والاهتمام الذي شمل مختلف مرافق الحياة الشرقية؛ فضلاً عن اختلاف بيّنٍ في مشارب الرحالة واختلاف توجههم وجنسهم.

كانت هذه نبذة عن الخريطة التاريخية لتنامي أدب الرحلات الأوربية إلى الشرق الأوسط، بعدها يمكن للبحث أنْ يتوسع في تحليل هذه الظاهرة ويحلّل صورةَ الآخر الشرقي في أدبيات الرحالة الأوربيين وأثرها في الثقافة الأوربية؛ وانعكاسها السلبي على موقف الآخر الشرقي منها.

ترسيخ المغايرة، وفكرة الآخر في أدبيات الرحالة الأوربيين

وبعد تحليلِ مفهوم الآخر وتقديم نبذة عن تطوره التاريخي بحدود دلالته في عنوان البحث صار المجال أكثر وضوحاً لتحليل اشتغال هذا المفهوم في أدبيات الرحالة الأوربيين؛ عبر انتخاب عينات منها؛ نظراً لاستحالة العرض الشامل لنشاطهم.

ولمّا كانت الفكرةُ الأساسيةُ لهذا البحث تنطلقُ مِن تأثيرِ مسلّمةٍ مفادُها: أنْ لا استقلاليةَ لأيٍّ عمل أدبي عن السياق الذي أنتج فيه؛ فالتعاملُ مع العمل الأدبي مِن منظور وظيفتِه المعرفية والجمالية غير المرتبطة بالشروط التاريخانية والاجتماعية والسياسة التي أسهمت في تكوينه مرفوضٌ؛ لأسباب مختلفة؛ إذْ إنَّ العملُ الأدبي والمُنتجات الثقافية عموماً مزيجٌ مِن تأثير الخيالِ والواقع والبيئة التي تشكّل فيها.

و" بهذا التصوّر تصدّى إدوارد سعيد في كتابه الإمبريالية والثقافة لتحليل وإعادة تأويل الرواية الأوروبية الكلاسيكية عن الشرق ونصوصها بوصفها جزءاً من التجربة التاريخية "[2]. ولكنّه لخّصها بمختصر مفاده: إنّ الشرق في أدبيات الرحالة والمستشرقين وحتى الأدباء هو بالعموم تصنيع شرقي مفارق لواقعه.

إنّ أغلبَ الصور الخاطئة التي أعطيت عن العالم العربي وعن الشرق الإسلامي عموما، فضلا عن الكراهية الشديدة إنما صاغها تراثٌ أدبي وفني انتشر

---

1 الانثروبولوجيا والاستعمار. جيرار لكرلك. ص 17-28. ترجمة: جورد كتوره. المؤسسة الجامعية للدراسات. ط2. بيروت. 1990.

2 صورة الآخر في الخيال الأدبي. طوني موريسون. مقدمة المترجم: محمد مشبال. ص 14. . ط1. دار كنوز المعرفة. عمان. 2018.

وازدهر في ظل رعاية الإمبريالية " أيْ أنَ الثقافةَ كانت مرتبطةً بالاستعمار ارتباط صميميا، وواقعة تحت تأثىر طاغٍ لحقائق القوة. فعندما صوّر الرحّالة والرسامون الشرق مكاناً للعنف والجنس والكسل والتعصب، إنما كانوا يسبغون الصدقية على الفكرة القائلة بأن أهل الشرق ليسوا مؤهلين لحكم أنفسهم، وبذلك كانوا يبررون تمهيد الطريق، لمجيء جيوش أوروبا وموظفيها الاستعماريين "[1].

وإذا كان أدبُ الرحلاتِ يعطي القارئ متعةً ولذة ويشعره بالجمال والمغامرة بوصفه جنساً أدبياً له روادُه ومحبوه؛ فهو مِن جانبٍ آخر عملٌ ذو خصوصية؛ مِن حيث كونه مَصدراً مِن مصادر المعرفة؛ وفي الوقت نفسِه عاملاً من عوامل تشويه المعرفة وترسيخ قيم المغايرة بين المجتمعات والشعوب.

وفي أدبِ الرحلات معطياتُ مفيدةٌ؛ سواءٌ على المستوى الفني أو الجمالي؛ أو على مستوى المعرفة والثقافة؛ فالرحالةُ بمعنىً مِن المعاني مؤرخون؛ لهم أسلوبهم ومعلوماتهم الممتزجة بالجمال الأدبي ولاسيما القصصي؛ وهذا ما يؤكد عليه البحث؛ إذ إنَّ كتابات الرحالة وثائق تأريخية؛ بمعزل عن قيمتها العلمية وسلامتها المنهجية. ومعنى هذا أنّ سمة الكتابة التاريخية تؤكّد على أنّ الآخر الشرقي صار كيانا مكتوباً عنه، أمّا مدى مطابقة ما مكتوبٌ عنه ومستوى صحته فهذا – على الحقيقة – المجالُ الثرُّ لنقاد الكتابات التاريخية؛ كلٌّ بحسب منحاه وتخصصه.

" شكّل الشرقُ موضوعاً لتفكيرٍ نتجت عنه دراساتٌ مختلفة، بدا فيها الشرقي نمطاً مُلتبسا بالأساطير والتصورات المغلوطة، وظهر فيها مغايراً لواقع الشرق ذاته، مع أنّ الشرقَ لىس كىاناً واحداً؛ لكن الأبحاثَ والدراساتِ صوّرته بناءً على مسبقاتٍ وأحكام التمركز الغربي "[2]، وهذا عينه ما فعله أدبُ الرحالة الأوربيين إلى الشرق. وقد استُخدِم مفهوم الشرق استخدماً مربكا ووظّف في سياقات مضطربة " وأسهم هذا الاستخدامُ في صنع صور ملتبسة عن الشرق. وتحوّل مفهوم (الشرق / الغرب) إلى

1 رسالة إلى الغرب. رنا قباني. ص 93-94. ترجمة: صلاح قباني. الأهالي للنشر والتوزيع. دمشق. ط1. 2000.

2 الذات والآخر في الشرق والغرب. م.ن. ص 26-27.

ثنائية؛ بناءً على تمركز ذاتي، وغاب المعطى الواقعي للمفهوم، إذ نسجت مكوناتُه على وفق أشكال متخيَّلة تستلهم إمكانيات التهميش، وهذا ما اقتضى الوقوف على ما أنتجه الخطاب من طرق لتمثّل الآخر، والتساؤل عما يعبّر عنه من إرادة للمعرفة بالآخر، الأمر الذي يطرح أسئلة محرجة أمام الفكر المنتج له، ولنمطه المهيمن"[1].

قام التصورُ الغربي على تقسيمات تضخّمُ الذات، وتروي عطش التمايز والتفوق على الآخر، لذلك جرى مدّ هذه الذات بجسور مصطنعة تُحيلها إلى الإغريق، انطلاقاً من هاجس البحث عن أصول ذهبية وماض عريق. وجرى تفسيرُ تاريخ اليونان بشكل يتوافق مع أسطورة الغرب المتمدن والمتحضر. " وقد دعّم ذلك النظريةُ القديمة الرومانية التي صنّفت الشعوبَ إلى أصناف متعارضة، مثل متوحشين، وبرابرة، ومتمدنين. ثم استعاضت المسيحية في العصور الوسطى عن معيار الفصل في ثنائية: رومان / برابرة؛ بمعيار فصلٍ آخر يقوم على ثنائية: الإيمان / الكفر.

ثم بدأت في العصر الحديث، حركةُ (الأوْربة) التي تجلّتْ بإخضاع مجتمعات العالم للنموذج الأوروبي، عبر أشكال الاستعمار، ورأت ضرورة إخضاع الشعوب للنموذج الغربي بوصفه النموذج الأصلح، ويحتل الغربي فيه القطب الأول في ثنائية: المتقدم / المتخلف "[2].

ولا غرابةَ في أنْ يُضافَ إلى هذا عنصرٌ تسويغيٌّ تمثّلَ بفكرة الانتداب، أيْ مبرّر التحكّم في الآخر الجاهل؛ بحجة الوصاية!.

ومِن هنا أُضيفت فكرة الوصاية امتداداً للثيمات الأخرى آنفة الذكر؛ فضلا عن المسوغات الانثروبولوجيا الكلاسيكية التي عملت على ترسيخ الدونية بالترويح لدونية الجسد وما يلحق به مِن لون البشرة وحجم الجمجمة وعدم القدرة على التحليل ... . ويدعم هذا العطلُ الحضاري الذي لحق بالشرق وكأنه حالة مطلقة دون النظر إلى عصور تألقه وتفوقه عن الغرب. أي أن الانتخاب التسويغي يعمل على تضخيم صورةٍ وتغييب أخرى؛ خدمة لتصوراته ومن ثُمَّ خدمة لمقرراته.

1 م.ن.

2 م.ن. ص 28.

" وقد ادّعى والأنتروبولوجيون الأوائل أنّ بإمكانهم قياس تطور عرق من الأعراق عن طريق قياس الجمجمة، فشكلُ الجمجمة وحجمها هما اللذان يدلان على قيمة هذا العرق. وكان أحد حاملي لواء هذه الفكرة (جيمس كاولز رىتشارد James Cowles Prichard) الذي قدم في كتابه (أبحاث في تاريخ الجنس البشري ١٨١٣) نظرية الطبقات العرقية متستّرة تحت قناع علمي. إلا أن كتابه الثاني (التاريخ الطبيعي للإنسان) (١٨٦٣) كان أكثر شعبية ورواجا واعتمد فيه على روايات الرحالةِ الاوربيين؛ مما زاد من قيمة حديثهم العنصري عن الأجناس الأخرى.

وقد تأثّر الرحالة (بيرتون) بأفكار (برىتشارد) بسبب تشابهها مع نزعته العنصرية. وكان بيرتون مثله يرى أنّ الساميين أكثر تقدماً من الزنوج الذين هم في نظره أدنى أنواع الجنس البشري "[1]. وبهذا تكون الدونيّة الجسدية إحدى التصورات الترويجية التي روج لها قسم من الرحالة إمّا مباشرة أو بسرد قصص حقيقية أو خيالية تؤول على أنها قصور وانحطاط انثروبولوجي.

أمّا بخصوص قضية الامتياز التي تؤصل للآخرية الدونية فقد عدَّ الكثير الرحالة أنفسَهم ممثلين عن الحضارة " وبذلك اكتسبوا حقوقاً وامتىازات. وفي الوقت الذي رأى فيه رحالة عصر التنوير في المجتمعات البدائية مزيجاً من (طبيعة إنسانية، وعقل) وثقافة مشوهة (الغيبيات) ونمطا من المجتمعات يختلف كليا عن مجتمعاتهم المتمدنة؛ فمن هذا المنطلق دأبوا في مجمل رحلاتهم، على رسم صورة الرجل الأبيض المتمدن، القادر على حل المعضلات جميعها "[2].

ومع أنّ الشرقَ لىس كىاناً واحداً لكنْ ظهرت الكثير مِن حمولات الاستشراق والرحالة والمستكشفين على أساس أنّ الشرق واحد ومتخلف، وجرى فهمه هكذا قُبالة مفهوم التمركز الغربي. و" الفصلُ بين الغرب والشرق لم يأخذ باصطلاحه الجغرافي، بل في تأكيد التباين الثقافي والأيدلوجي بينهما ... والتمركزات صِيغتْ

1 أساطير أوربا عن الشرق. م.ن. 100-101.

2 الانثروبولوجيا والاستعمار. جيرار لكرلك. م.ن. ص 23.

استنادا إلى نوع التمثيل الذي تغذيه المرويات، الثقافية والأدبية، للذات المتوهّمة بالتفوّق، قُبالة الآخر الموسوم بالدونية.

وعليه يغدو التمركزُ نوعاً من تصورٍ مضاعف عن الذات والآخر، وتأتي المرويات لتراكم الصور النمطية المتخيلة الناتجة عنه"(1). ومروياتُ الرحالة ذاتُ أثرٍ مضاعف في المخيلة؛ نظراً لأنها في الغالب ذات إطار قصصي أو وصفي سهل التلقي من لدن القراء.

لكن لفعل كلّ ذلك لابدَّ من تغطيته بغطاء أخلاقي يبرر الأفعال؛ فكان لابدَّ مِن اختيار صفاتٍ خاصةٍ تجعل من الشرقي متّهما لا ضحيةً. وأسهل صفة بعد التخلف العمراني إسباغَ صفة الشر على مجتمعاتٍ مُستضعفة أو متخلّفة لخلق مُبرر الهيمنة، والتدخل في شؤونها أو استعمارها. فمثلا كما ربطت " أوروبا القرون الوسطى بين النساء والشيطان، ورأت فيهنَّ عدواتٍ للكنيسة والمدنيّة؛ وبرَّر مُطاردة الساحرات ومحاكمة النساء بتهمِ الجرائم الجنسية، وأكل لحوم البشر، ومعاشرة الأرواح الشريرة "(2)، فقد مورست هذه النزعة أيضاً في الكثير مِن مواقف الرحالة تجاه بعض المجتمعات الشرقية.

والرواياتُ الأوروبية عن الشرقي غالبا ما تخفضه إلى مرتبةِ الذي لا جدوى مِن إصلاحه " وكان في تلك الروايات التي تصف ذلك (الآخر) مقولتانِ مُلفتتان: الأولى الادّعاءُ بأنَّ الشرق مكانُ الفسق والملذات، والثانية أنَّ الشرق عالمُ العنف المُتأصل. والقرنُ التاسع عشر هو الذي أفرز الشكلَ المنظم لتلك المقولات؛ ... فإذا ما صوِّرت شعوبُ الشرق بأنها خاملة، وليس لها قدرة على أنْ تحكم نفسها، عندئذ يجد المستعمِرُ المبررَ ليتدخل في شؤونها! "(3).

ولأنّ الرحالة الأوربي بصدد مُخاطبة عقولٍ أوربية شِبه خاوية مِن تصوّر عن الشرق؛ فضلاً عن الجهل باللغاتِ الشرقية فقد كان "آمنا مِن النقد نسبياً، فمَن مِن

---

1 28-30

2 Women and Colonization: Anthropological Perspectives, Mona Etienne and Eleanor Leacock.) p. 175. (New York, 1980.

3 أساطير أوربا عن الشرق. م.ن. ص 19-20.

الذين يقرأون له ويستمتعون بأكاذيبه التي تداعب الخيال سيأتي إلى المدينة المنـــورة ليتحرّى عن مكانة النخلة في عقيدة المسلمين! التي تحدَّث عنهـــا الرحالـــة بيرتـــون مثلاً!. والحقيقةِ فإن المبالغةُ هي السمة الأبرز في أدب الرحلة الغربية تقلُّ درجتها أو تزيد بحسب ثقافة الرحالة وسعةِ خياله "[1]. وطبيعة ثقافته.

وما مرّ بالعموم لا يعني أنْ ليس هناك رحالةٌ أسوياء؛ هدفهم التحرّي عن الحقيقة؛ لكنَّ الفقرَ في الاطلاع والجهل بلغاتِ الشرق وتاريخه وطبائعـــه تجتمـــع لتـــؤثّر فـــي تصوره وفهمه عن الشرق، وهو سببٌ نابعٌ عن الجهلِ وعـــدم اكتمـــال الصـــورة؛ لا بسبب القصد وسوءِ الطوية.

إنّ تحليلِ خطابِ الرّحالة وتفكيكه موضوعٌ ليس بالهين " نظراً لتعقّد دوافعهـــم الثقافية، فضلاً عن كون التعقيدات الحضارية والتغيرات الفكرية والسياسية أصـــبحت مِن العوامل المستجدّةِ في توجيهِ الرحالة الأوربيين. فضلا عن تباين الرحالة أنفســـهم من حيث القصد وطرائق التعبير؛ والخضوع للعامل التاريخي المحمّل بأطر دينية. وإنّ مقولةَ: الغربُ يعرف عن الشرق أكثر مِن الشـــرقيين؛ لا تصـــادرُ حضـــور الشـــرقي ووعيه فحسبُ، بل وعي الأوربي أيضاً؛ وجعله أسيرَ ما يقرأ "[2].

وعلى النحو الذي يقرُّه فيكتور سيجلان Victor Segalen **" فالآخرُ كيـــان ثقافي مغاير، والذات تشعر بلذة الاختلاف، والذهاب نحو الآخر انتزاعٌ من الذات ومِن ثقلها الثقافي الأصلي، إذ يمكن التمتع بالأجنبي من منطلق ينتزع المرء من نرجسيته وانغلاقه "[3].**

والرحالةَ بالعموم لا يحدِّد طبيعةَ منهجهِ، ولا حتى أسلوب كتابته بقدر ما يخضع لتأثير الذائقة الجماهيرية في بلده؛ ليكون جهده مقبولاً؛ والأثر" الذي يفرض حضوره علـــى

---

1 روايات غربية عن رحلاتٍ في شبه الجزيرة العربية. ج2. ص21.عبد العزيز عبد الغنـــي؟. دار الساقي. بيروت. 2013.

2 تصور الشرق في كتابات الرحالة البريطانيين في العصر الفكتوري. حسين يوسف حسين. مجلـــة كلية التربية. جامعة واسط. عدد: 37. 2019.

3 تمثلات الشرق في أدب الرحلات الفرنسية. ليلى الجباري. مجلة العلوم الإنســـانية. ص 40 –41. 2017. بيروت. المجلد 1. عن: تصور الشرق في كتابات الرحالة البريطانيين في العصر الفكتوري. م.ن.

منتج الرحالة البيئةُ الاجتماعية التي ينتمي إليها، وهو ما ينفكُّ يعزّز انتماءَه إليها بالنسج على منوال متطلباتها. وهذا لا ينفي الذاتية؛ لكنه يحدّد الهيكلَ الذي يفرض ثقله على منتجات أيّ كاتب عن الآخر، لذلك ففي مرحلة العصر الفيكتوري مثلاً؛ وهي مرحلة التوسع الاستعمار البريطاني كانت الروح الاستعمارية والصرامة الأخلاقية والاجتماعية آنذاك تقتضي تعزيزات سلطتها؛ وبموجبها كان يجري دعمُ رحالةٍ ما، وهذا لا يتم إلا إذا تشرّب نفسه بنهجها، وأغلب الرحالة الناجحين وجدوا رفداً سياسياً ومالياً من لدن حكوماتِهم.

" وبصرف النظر عن كون الرحالةِ آنذاك يؤيّد الأفكار الاستعمارية أو يرفضها فإن رؤيته أصبحت أداةً لتلفيق أساطير الإمبريالية؛ التي تزايد حجمُها حتى غدتْ تقاليدَ قام بدعمها العديد من الرحالة بشكل مستمر، وقد كان لهذه التقاليد دورٌ في تكوين التسميات الثقافية "[1]. التي تفرز الآخر الشرقي بوصفه كياناً مغايراً على مستويات مختلفة.

ولا عجبَ أنْ كان قسمٌ مِن النقاد يمجّدون جهد أولئك الرحالةِ ويجِدون في جهودهم " خدمةً نوعيةً لم تتهيأ للرحالة الأوربيين في عصور سابقة؛ مع ما حوتْه رحلاتُهم مِن تعسفٍ في حق الشرق ومبالغات وعقد شخصية وحضارية "[2].

وهذا ما جعل الرحّال ألبرت سميث في كتابه (شهرٌ في القسطنطينية) يعلن غضبَه وشكوكَه من رواياتٍ قدّمها أولئك الرحلات؛ ونشروها بين الناس، يقول: " عملِتُ ما بوسعي لأنالَ مِن تلك الكتابات؛ نظراً لما خالطها مِن زيف، وتشويه يستغل القارئ؛

---

1 أساطير أوربا عن الشرق. م.ن. 138.

2 أنظر:

Heart Beguiling Araby: The English Romance with Arabia. Kathryn Tidrick. Tauris Parke Paperbacks 2009.

بإثارة الأخيلة والأسلوب المنمق "[1]. وإضفاء طابع الرومانسية على أسلوبه وقصصه.

والنزوعُ الرومانسي الذي تمَّثل في كتابات بعضِ الرحّالةِ أغرى الرسامين برسم شرق ساحر؛ مستفيدين مِن أخيلة اطلعوا عليها عِبر قصصهم الممتزجة بسحرِ ألف ليلة وليلة، فمثلاً الرحالةُ لين في كتابه مصر الحديثة كان مَصدراً للرسامين الذين رسموا اللوحات التي جسدت عالم النساء؛ وما يسمى بمخادع الحريم. وكانت النساء مِن بين الرموز الأشد غرابة وعجائبية وإثارة لديهم. وقد لقيت كتاباتُه " التعبيرَ الأكثر تماسكاً وقوةً في عمل المصوّر جان أوغست Jean Auguste، ففي عملِه المبكر الذي يعود إلى عام 1814 رسم لوحتَه المحظية التركية العظيمة، وأتبعها بعمليْهِ الشهيرين العيدُ، والحمام التركي "[2].

إنَّ الافتتان بقصص (ألف ليلة وليلة) جعل العديدَ من الأوروبيين يخلطون بين الشرق الحقيقي وشرق هذه القصص؛ فالليدي (ماري مونتاغو **Mary Montagu**) مثلًا اعتقدت أنَّ القصص وصفٌ دقيق للمجتمع الشرقي الذي لامست أطرافُه؛ بصفتها زوجة السفير البريطاني. وكتبت بسذاجة: " إنّ هذه القصص كتبها مؤلف محلي؛ ولذلك فهي تصور الناس تصويراً حقيقياً. وبذلك تداخل الخيال والواقع عند القارئ الغربي حتى توهم أنَّهما شيء واحد .

أما (غوبينو) الفرنسي الذي بدأ سفره وهو تحت تأثير الأفكار نفسها فقد كتب: كلّما خطونا خطوة في آسيا ازداد اقتناعنا أنّ (ألف ليلة وليلة) هو الأكثر دقة، وصحة من سائر الكتب التي وصفت أقطارَ هذا الجزء من العالم "[3]. وقد لخص (فريدريك شليغل **Friedrich Schlegel** وهو من كبار منظري الرومانسية) حماسة الحركة الرومانسية لإمكانيات الشرق الأدبية بقوله: في الشرق نعثرُ على أرق شكل للرومانسية، فهو النبع الذي يجب أنْ تنهل منه. فالرومانسيون وجدوا في الشرق

1 **A month at Constantinople. Albert Smeth. Boston: Bradbury & Guild. Washington street.** 1852. 13.

2 تصور الشرق في كتابات الرحالة البريطانيين في العصر الفكتوري. م.ن.

3 أساطير أوربا عن الشرق. م.ن. ص 56.

عالما مختلفا عن عالم الكلاسـيكية، لا عقلانيـة تملـؤه، وتلوّنـه حريـة التخيـل والحساسية، والقدرية. وكان الشرق يوفر لهم خلفية ذات منـاظر شـاعرية يتحـرك عليها أبطال رواياتهم وقصائدهم. ففي قصيدتي (الآستور Alastor) و(ثورة الإسلام The revolt of Islam) نرى أبطال الشاعر (شيلّي Schelley) يزورون الأطلال، ويمرون بوادي النيل، ويجتازون فارس والجزيرة العربية، ويتسلقون الهملايا، حتـى يصلوا إلى أكثر الوديان عزلة في كشمير، وبذلك يبرز أمامنا المحور الرئيسي الـذي تدور حوله القصائد الرومانسية ألا وهو: الترحال "[1].

وشرق الرومانسية في الحقيقة مكانٌ لا صلةَ له بالشرق الحقيقي. ومن جهة أخـرى فلم يكن هناك أية رغبة في تصوير المدن أو مظاهر البؤس الاجتماعي، أمّا الفقر (في كتابات الرحالة) فلا وجود له في الشرق الأسطوري، إنـه الشـرق الغنـي بالبهجـة والخيال، هذا الشرق " كما لخصه الفرنسي (شـاتوبرىان): حمامـات، وعطـور، ورقص، ولذائذ آسيوية "[2].

ومن البدهي أنْ يكون في كلِّ مجتمعٍ مثلُ تلك الظواهر؛ لكن في داخل فئة محدودة من النساء، لكنَّ المشكلة كانت بإعمام الحالة، ونقلها إلى المجتمـع الغربـي على أنها السمةُ الطبيعية للمجتمعات الشرقية ولاسيما العربية. وكتابات الرحالة فـي تشكيل صورةٍ ما أو اختلاق ظاهرةٍ شاهدها أو سمع عنها سرعان مـا تتحـوّل إلـى صورةٍ نمطيّة تترسخ في تصورات جماهير القرّاء، خاصـا عنـدما تكـون مدعمـة بقصصٍ مُشوقة وغرائبية وذات إثارة.

وقريب مِن هذا ما ذكرت الباحثُ روبرت بونتـون قـائلاً إنّ: " حسـابات (الرحالـة) الأوروبيين في أوائل القرن التاسع عشر غير قادرة عموماً على التمييز بين (العـوالم

---

1 م.ن. 37.

2 م.ن.

والغوازي)، وعموم المجتمع، مما يشير إلى درجة مِن الجهل الثقافي؛ فضلاً عن عدم إمكانية وصول معظم الأجانب إلى الأجزاء الداخلية الخاصة من شرائح المجتمع "[1].

هذا فضلاً عن زجّ أخبارٍ ذات طبيعة عقائدية على الكتابات الرحلية لتمتزجَ المغامرة بهاجس ديني يظهر الآخر الشرقي بها مداناً أو عدوا أو كيانا دونياً في أحسن الأحوال. فنجد مثلا (دزرائيلي Disraeli) يتخذ اسما لبطلَ روايته (تانكرد Tancred[*]) مِن أحدِ قادة الحروب الصليبية " يبدأ رحلته من إقطاعية أهله، وقد تزوّد برؤيةِ بيئته وسلوكياتها، وهو ذهب إلى الشرق كي يتعلّم، ولكن ما إنْ يمضي في رحلته حتى يغدو هو المعلِّم، إنه يحمل معه إلى الأماكن التي توغّل فيها الَّتي تعمها الفوضى انفعالاتِه وكلَّ ما نشأ عليه مِن صرامةِ السلوك.

وإذ أنتج العصر الفكتوري شخصية تانكرد الخيالية فقد أنتج على شاكلتِه أيضاً رحالةً قاموا برحلاتهم قبلَ أنْ يشرعوا بها أصلا، وذلك بالاعتماد على ما أنْ زوّدتهم قراءاتُهم بكثير من الصفات التي كانت بمثابة صورة للشرق"[2].

وكما نوهنا سابقا فالرحالةُ الأوربي " ينتهز كلَّ فرصةٍ ليتحدّث عن الذات، فالأنا الممقوتة في النبرة الكلاسيكية تم تكييفها لتتوافق مع التمجيد الأوربي، وصار الرحال هو الصليبي، والبطل، والجندي المسيحي. وسرعان ما اتسعت شهرتُه وراحت تأخذ

---

1 *British Travelers and Egyptian 'Dancing Girls. Locating Imperialism, Gender, and Sexuality in the Politics of Representation, 1834-1870 by Robin Bunton. B.A. (Hons.), P.17.University of British Columbia, 2017*

* تانكرد **Tancred**، كان زعيماً نورمانياً وأحد قادة الحملة الصليبية الأولى، وشارك في معركة حصار القدس عام 1099 أصبح بعدها أمير على الجليل عام 1100 ثمّ حاكما على إمارة أنطاكية وتوفي في أنطاكية عام 1112م. ينظر:

The Crusades - An Encyclopedia. Grabois, Aryeh. New york. (2006) pp. 1143-1145. 2009

2 أساطير أوربا عن الشرق. م.ن. 136.

أبعاداً أسطورياً. والواقع لم تكن الذات الأسطورية للرحالةِ سوى مُحصلة لِمـا حملـه معه من ثقافة ونزعات ومعتقدات "[1].

والواقع فقد تباينت دوافعِ الرحالةِ ونمطيتهم في النصف الثاني من القـرن التاسـع عشر، " وتوزّعت بين الحماس التبشيري، وحب المغامرة، والبحث عن الرومانسـية، والبحث العلمي، والاستطلاع السياسي. وتتراوح حسابات تلك الرحلات فـي الشـرق الأوسط من التقارير الأثرية مثل "اكتشافات السير أوستن هنري لايـارد" فـي مدينـة نينوى (1851) في العراق، إلى الروايات الصاخبة لريتشارد بيرتـون. بينمـا كـان إليوت واربرتون في كتابه "الهلال والصليب" (1844) أكثر طموحاً؛ لكنه أقـل إثـارة للانتباه "[2].

ظهرت طروحاتُ الرحالةِ في منتصف القرن الثامن عشر أكثر رصـانةً وتسـلحاً بمناهج كتابية لاسيما من حيث الأداء اللغوي، والتنظيم. مع أنَّ العديدَ مِـنهم جمعـوا بين الأخيلةِ المقروءة في القصص القديمة عن الشرق وبين مشاهداتهم وملاحظـاتهم الشخصية عنه. وفي نموذج الرحالة البريطاني ريتشارد بيرتون Richard Francis Burton 1821 –1890، تتكثف هذه السمةُ وتظهر بوضوح[3].

وبرتون " أمدّ المكتبةَ التاريخية بمعلوماتٍ في غاية الأهمية عن الحيـاة الاجتماعيـة للمصريين والحجازيين، وتعدُّ ملاحظاتُه مهمّة، وتحمل قدراً كبيراً من الدقة، كما نجده منصفاً حيال كثير من القضايا التي ناقشها أو الأحداث التي رآهـا "[4]. لكـن هـذا لا يعفيه مما وردت في كتاباته من تجنٍّ أحيانا؛ نتيجة قصور فـي المعرفـة أو بسـبب

---

1 الـرومـانسيـة دونكان هيث، جودي بورهام. ص25. ترجمة: عصام حجازي. ط1. المجلـس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002 .

2 تصور الشرق في كتابات الرحالة البريطانيين في العصر الفكتور. م.ن. ص 151.

3 Travels in Arabia Deserta, Doughty, First published in 1964 by Routledge Kegan Paul Ltd, (New York:Dover, 1979), vol. I, p. 5

4 كتابات الرحالة الأوربيين مصدراً للتاريخ الحضاري للمدينة المنورة من مطلع القرن الحادي عشر الهجري حتى نهاية العصر العثماني. حورية عبد الإله. أطروحة دكتوراه. ص 91. جامعة أم القرى. 2013.

حمولاته الثقافية. ومع ذلك " فإن الجمعَ بين كتابات (برتون) عن الشـرق وكتابـات أوربيين آخرين سيلخِّص الشرق في كبسولة صغيرة من المعرفة يسهل هضـمها، إلا أنها معرفة حِيكت بعناية فائقة؛ لا مناص مِن أنْ توْقع نساجها في شَركها رغما عنـه ".[1]

" استخدم بُرتون (ألف ليلة وليلة) ليعبرَ عن دخيلةِ نفسِه، ويتحدّث عن هواجسـه الجنسية، كما جعلها مَطية لوصف جميع أنواع الانحرافات بشغف واهتمـام. فمـا أنْ يرد ذكر واحدة من هذه الانحرافات حتى يقتنص الفرصة ليسرد كلّ معلوماته عنهـا، ولم تقتصر نظرته تلك على الشرق العربي؛ بل طالت أمماً أخرى فكان نظرته " لأهل الصين واحدة من مظاهر احتقاره الشامل للشعوب غير الغربية بعامة: كأهـل السـند والمصريين، والفرس، والأتراك، وكان عندما يذكر هؤلاء فلكي يشوه سمعتهم جميعا ".[2]

لكن إذا انتقلنا إلـى الرحالـة البريطـاني دويتـي Doughty (1843 – 1926) فسنلاحظ كراهيته للإسلام والمجتمعات العربية التي اختلط بها، وألّف عنها؛ لاسـيما في كتابه رحلات في الصحراء العربية Travels in Arabia Deserta. ودويتي هذا " بالأصل كاتبٌ وشاعرٌ مُتمكن من اللغة الإنجليزية؛ ولد في مقاطعة ثيبرتون، ودرس في مدارسها الخاصة "[3]، وتشرّب فيها باللغة الإنكليزي وآدابها قبل أن يكون رحالة، " ثم التحق بكلية كينجز في لندن، وتخرج أخيرا من كلية جونفيل في كامبريدج [4]. " ويتحدث في كتابه *رحلات في الصحراء العربية* عن الحياة في المجتمعـات العربيـة، وكأنه يتحدّث عن عالم تابع لأملاك الإمبراطورية البريطانيـة؛ ولكـن بإطـار دينـي

---

1 أساطير أوربا. م.ن. 92

2 م.ن. 96-98.

3 David George Hogarth, The life of Charles. Doughty, Publisher: Oxford University Press, 1928, p.2

4 Doughty, Charles Montagu A Cambridge Alumni Database. University of Cambridge.

مسيحي، وهو حين يذكر سوريا وفلسطين مثلا كأنه بصدد الكلام عن أرض مسيحية مغايرة جذريا لجزيرة العربية " [1]. تاريخيا وحضاريا.

وعمله: (رحلات في الصحراء العربية) في عام 1888، وهو في مجلدين " له تأثير على الثقافة الأوربية، ومن المراجع المهمة في أدب الرحلات. كتبه بأسلوبٍ سلسٍ ومتماسك، والغالب عليه استناده إلى جغرافية التوراة. والصورةَ التي رسمها للآخر الشرقي " لا تظهر جليّةً إلا بعد معرفة دوافعه الدينية التي دفعته للرحيل إلى الصحارى العربية. ألا وهي رغبته في فك رموز الكتابات المنقوشة على خرائب (مدائن صالح) لاعتقاده بأنّ لها دلالات توراتية. وبالفعل أشار في مقدمة الطبعة الثانية من كتابه (الصحراء العربية) إلى أنّ اهتمامَه الشديد بالبحث التوراتي هو الذي جعله يخاطر بنفسِه ويقصد إلى تلك الخرائب"[2].

يقول في معرِض كلامِه عن حياة البدو في الصحراء العربية: " يمكن أنْ نسمعَ في أحاديثِهم صدى اللغاتِ العابرة، وأنْ نلمحَ في عاداتهم أساليب حياة قديمة تنبعث أمام أعيننا من جديد؛ فنجدنا وكأننا عدنا القهقرى إلى أيام القبائل العبرانية. ومِن هنا نصبح أكثر قدرة على قراءة العهد القديم بفهمٍ مختلف زوّدتنا به تلك التجربة الحية.

ولكن هذه التجربة الحية لا بدَّ من أنْ تكونَ ذات ارتباط وثيق بالماضي المسيحي، أمّا إذا كانت مجرّد معتقدات وعادات مختلفة عمّا ينشده الأوروبي، أو كان لها مفاهيم مغايرة للتوراة عندئذ يتحتَّم إنكار هذه التجربة ورفضها؛ لأنها تخلخل الصورةَ الراسخة في ذهن الأوروبي, ويصل رفضُ (دويتي) حد التعصب الذي يذكرنا بتعصب اللهجة الصليبية ومقولاتها "[3].

أمَّا الرحالةُ إدوارد لين. E.W.Lane فيصف مِصر الحديثة بأنها " مخزنُ السحر والغموض، وما يتصل بعلم التنجيم والخيمياء، والحشيش والأفيون، والسحرة؛ الذين

---

1 Travels in Arabia Deserta, Doughty, (New York:Dover, 1979), vol. I, p. 11

2 أساطير أوربا عن الشرق. م.ن. 159

3 م.ن. 160.

يراقصون الأفاعي، والمشعوذين في الساحات العامة، والأفعال الشاذة الغريبة التي تتحدّى الخيال... كان هناك على الدوام البغض والكراهية العتيقان المغلَّفان بالحس الأخلاقي والتعصب الديني.

ولين في هذا يُحصي عيوب المجتمع المصري الذي لاشك كان غارقا في التراجع والتخلف نتيجةَ الحروب والمنازعات السياسية لقرون، إلا أنَّ الأحوال التي ركّز عليها ليست كلّ الأحوال في المجتمع المصري آنذاك؛ لكنه لم يذكر في كتاباته الأحوال الأخرى ولا الايجابيات التي في الحضارة المصرية والإسلامية إلا قليلاً.

وأكثرُ ما يمثّل المخاتلة التي يعتمدها لين في الترويج لِما يكتب افتعالُه الموضوعية، يقول في كتابه (سلوك المصريين المعاصرين وعاداتهم)؛ الذي كتبه بدعمٍ من (جمعية نشر المعرفة المفيدة) وتلقى عليه مساعدة مالية: " توخّيت الدقة قبل كلِّ شيء، ولا أتردّد في أنْ أؤكد على أنني لم أتعمّد أنْ أفتعل في أيِّ أمرٍ رويته شيئاً يجعله مثيراً على حساب الحقيقة.

وهذه العبارة المثقلة بالحذر تدلّ على أنّ (لين) كان يدرك التلفيقَ الذي كان يعمد إليه الرحالة ليجعلوا مما يروون شيئاً مثيراً للاهتمام. ولا شك أنه نصّبَ نفسَه خبيرا بالشرق، وبذل جهده كي يتحاشى المبالغات التي أتى بها كُتابٌ أقل معرفة منه. ومع ذلك لم يقوَ على تفادي السقوط في شرك الانتقائية؛ وذلك عندما اختار كلَّ ما من شأنه إثارة اهتمام القارئ الغربي. لذلك كان حين يروي حادثاً لم يشاهده بنفسِه يؤكّد لقرائه بأنّ مصدراً موثوقاً هو الذي أعلمه بتفاصيله.

ولكن سرعان ما يكشف لنا لين أنّ هؤلاء الأشخاص ليسوا سوى أقرانه الإنكليز. وخبرةُ هؤلاء لا يمكن الارتياب منها!، لأنهم معصومون مِن أن يعطوا شهادة مشكوكاً في أمرها بسبب الجنسية التي يحملونها! "[1]. وهذا ما حدا بـ بيرتون نفسِه أنْ يوجّه نقداً لما كتبه لين مُبينا التطرّف واللادقة في ترجمته، وكيف أسبغ عليها حمولاته الذاتية وميوله هو. قائلا: " لم يحرز لين، الذي كان متطرفاً نجاحاً في ترجمة حكايات ألف ليلة وليلة، ومن مئتي حكاية أغفل النصف... والأسوأ أنه حوَّل بعضَ

1 م.ن. 71-73

الفصول إلى تعليقاتٍ؛ فقدّم الشعر عن طريق النثر، ولم يحفل بدلالاتِ المعجم، فتشوّهت صفحاته بسبب الأخطاء الصبيانية. وهو يدقّق في عادات المصريين المعاصرين له، ويفرط في الحديث عن شريحة الغوازي والعوالم، وكأنه أنفق جلّ رحلته لتتبع هذه الفئة من المجتمع. فهو يصف بدقة أخبارهم وأماكنهم وأزيائهم وحليهم، ناهيك عمّا وصفه أيضا من أمور أخرى لا نريد الخوض فيها في هذا المجال[1].

وواضح من كلام بريتون أنه يركز على كشفِ العوامل الذاتية والانفعالية لـ لين فضلا عما يكثفه من كلام على بيئات محدّدة ربما تعكس شخصيته هو وميوله هو.

يقول دانييل مارتن: " انفق لين طويلاً في مصر في القرن التاسع عشر وكتب عن عادات المصريين وتقاليدهم، وأغلب ما كتبه وركز عليه مظاهرَ الانحطاط الأخلاقي وانحراف السلوك عِبر كتابات لا تحليل علمي وواقعي فيها، وهي كتابات مختزلة في نزعة انثربولوجية قُدمت لمَن يريد السفر إلى الشرق "[2].

وهكذا كانت تجري عملية تكرار ونقل صورة الشرقي؛ ليس إلى المجتمع الأوربي فحسبُ بل للرحالة الآخرين الذي ينوون الرحلة إلى الشرق.

ولين في سعيه هذا لم يختلف عن بيرتون في الأنساق التي انطلق منها، وهي أنساقٌ استعلائية ومختصرة للآخر؛ " لاسيما وهو يعـرّف نفسَه على أنه رجل الإمبراطورية؛ الذي تدرّب في جيشها، وتعلّم لغات مستعمراتها، وعبَّر عن مفاهيمها

1 *An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians,* Edward William Lane Vol. II; (London, Charles Knight & Co., 1836), p. 271.

2 *Islam Obscured The Rhetoric of Anthropological Representation. Daniel Martin p. 139. Newgen Imaging Systems Ltd., Chennai, India. First edition: January 2005*

ومعتقداتها الإمبريالية، وكان لابد أنْ يلامَ على هذه الخطيئة، فتعبيره الواضح الفاضح لنزوات عصره (هو) كان يشكل تهديدا للبيروقراطية الحذرة التي تؤثر الكتمان[1].

وهذا السلوك والنزعة إلى الإعمام والتقليد جعلت من العسير على الرحالة الاندماج في طبيعة حياة المجتمعات التي كتبوا عنها وانبثّوا في مفاصل حياتها: فهم كلّما حاولوا الدخول في تلك المجتمعات تنامى لديهم شعورٌ بأنّهم مختلفون ومتفوّقون عليهم, مما دفعهم إلى انتهاج طرق خاصة معهم. لاسيما حين يعمَدُ السكانُ إلى إبداء مُمانعة وريبة مِن وافدين لا يثقون بنواياهم ومراميهم. يقول بيرتون عن المصريين: " يجب أنْ يحكموا بالطريقة التي حكم بها (سير شارلز نابىىه) السند، أي أنْ يُوضعوا باستمرار تحت المراقبة، وأنْ تحكمهم سلطةٌ عسكرية، ويُنزع سلاحهم، وتحظر تجمعاتِ رجالهم.

في حين يقول لورنس: " إنَّ سرَّ التعامل معهم: ألا تتوقف عن دراستهم، بل تأخذ حذرك منهم، وألا تُلقي الكلامَ أمامهم على غواربه، وأنْ تراقب نفسك وأقرانك طيلةَ الوقت. وعليك أنْ تسمع كلَّ ما يُقال، وتتحقق مما يجري في الخفاء، وأنْ تتفرس في شخصياتهم، وتكتشف أذواقهم ونقاط ضعفهم. لقد بُعثت إلى العربِ كغريب ولم أقدر على أنْ أفكر مثلهم أو أتبنى معتقداتهم، بيد أني وإنْ كنت أخفقت في اصطناع شخصيتهم فقد استطعتُ على الأقل أنْ أخفي شخصيتي"[2].

كانت المعاناة النفسية التي يعاني منها الرحالة شديدة؛ وهم بصدد تغير سلوكهم وملبسهم وطرائق تعاملهم، لأنه يشعرهم بالغربة؛ لكنهم مضطرون إلى ذلك لإنجاح مساعيهم في التغلغل في بيئات مختلفة عن بيئاتهم. وأحيانا يشعرهم هذا الافتعال بالضيق الشديد الذي يحملهم على الثورة عليه في كتاباتهم ومعلوماتهم؛ فيوغلون في تحقير مَن يجبرهم على هذا الإرغام والتخفي.

وهذا الحال دفع لونس نفسُه إلى القول: " إنّ قيامي خلال هذه السنين بارتداء لباس العرب وتقليد نمط تفكيرهم أبعدني عن ذاتي الإنكليزية؛ إلا أنني في الوقت نفسه

---

1 أساطير أوربا عن الشرق. م ن. 147

2 تصور الشرق في كتابات الرحالة البريطانيين في العصر الفكتور. م.ن.

لم أستطع أنْ أدخلَ في الجلد العربي؛ فالأمر كله لم يخرج عن كونه تكلّفًا يكاد يضع المرءَ على حافة الجنون وهو ينظر إلى الأشياء برؤيتين وثقافتين متباينتين في وقت واحد[1].

إنَّ النمطيةَ الكتابية التي يستخدمها لورنس في وصفِ المجتمعات العربية تحاول رسم ثيمةٍ عامة عن العربي الذي كان يسكن البادية ويجعل منها نمطية عامة توحي للقارئ الغربي بأنه يصف العرب أجمعهم وفي مختلف عصورهم. وهو يُرسل ما يكتبه إلى الأوربيين بوصفهم قراء أولاً، وثانيًا بوصفها معلومات سياسية إلى الدوائر المختصة في بلده. ولا يرسلها بوصفها انطباعات ذاتية بل تقارير مفروغٌ من صحتها. وعلى هذه الوتيرة يشتغل الخطاب وتنبُّ الفيلولوجيا السردية لترسمَ ثيمة ثابتة للآخر الشرقي في الذهن الأوربي.

قد يبدو لورنس أنه يكتب خارج نطاق الأدب في تقاريره المرسلة ولكن تقاريره في الحقيقة جهد سردي فائق القصدية والتأثير. وقد يبدو أننا بصدد رحالةٍ يقتحم المجالَ السياسي على الخصوص؛ لكن عمله يقع ضمن السرد الحكائي الوصفي الذي ينتهي إلى النهاية ذاتها التي ينتهي إليها الرحالة ذو الميول الأدبية البحتة " الَّذي يدلل على قطعية مقرراته التي كان يقدمها على شكل تقارير للحكومة البريطانية ما كتبه لاحقا تحت مسمى (أعمدة الحكمة السبعة Seven Pillars of Wisdom) فالعنوان يكفي ليدلل على التعالي الذي يضمره أو يعلنه، فأولا: هي أعمدة حكمة مقدّسة؛ مأخوذة مِن سفر الأمثال في العهد القديم؛ بحسْبِ نسخة الملك جميس.

وثانيا الحكمة لها مراتبُ لا تأتي إلا مِن حكيم عارف، لذلك فأحكامُها ومقرراتها لها سطوةٌ وحضور شاخص؛ له ما يشبه القدسيةَ في أذهان السامعين؛ وإلا فمن ذا الذي يتجرّأ على الحكمة وينال مِن صدقها! [2].

1 Seven Pillars of Wisdom. T. E. Lawrence: A Triumph. (London, 1935; 1965) p.18-19.

2 Letter of T. E. Lawrence, edited by David. Garnett. Jonathan Cape. London. 1939

Proverbs 9:1 bible hub. James, accessed 19 June 2018. P.607

وهذا الحالُ حمَل الرحالة ويلْفريد بلُنْت Wilfred S. Blunt إلى الوقوف موقفاً شديداً ليس من الشط الذي مارسه الرحالة الذين عاصروه أو الذين سبقوه فحسبُ " وإنما وقف موقفاً حاداً مِن سلوك الحكومة البريطانية ذاتها تجاه الشرق بعامة؛ بما في ذلك سياستها في الهند والشرق الأوسط. وما قدّمه مِن ملاحظاتٍ ونصائح لحكومتِه لاقت رفضاً؛ لكنها ما لبثت أنْ تبيّنت أنّ في رؤية بلُنت صواباً ومواقف متفحصة وإنه ذو نزعةٍ منصفة وسلوك إنساني؛ يتعارض مع الموقف النفعي للحكومة البريطانية، مع أنه لم يكن يتخلّى لحظةً عن دعمِ مصالح بلده؛ لكنّه يمتاز بسلوكِ نقدي "[1]؛ وحمله لنزعة أخلاقية تأنف مِن أنْ تحقّر الآخر أو تزور حقيقته.

وبخلاف الحالِ الذي كان عليه برتون ودويتي ولورنس وغيرهم؛ " لم يغيّرْ بُلنت مِن نظرته الأولى إلى صفات البدو، ولا مِن تعاطفه معهم؛ إذ بقي على إعجابه بورعهم الديني وبنظرة المساواة التي كانت تسود مجتمعهم؛ إذ كان شيوخهم ذوي المحتد يتلقّون احترام الأفراد بتواضع جم، بعيداً عن مظاهر السلطان والأبهة الفارغة "[2].

ويقول في مقدمةِ كتابه أفكار عن الهند Ideas about India الَّذي ذيّل عنوانه بعبارة عربية مفادها(عدلُ ساعةٍ خير من عبادة سبعين سنة): " هناك مسألة قد تكون شخصية؛ لكنني استغلها لأبين رأيي ببضع كلمات، فمن بين منتقدي كتاباتي عن الهند، هناك البعض ما ينفكون عن دحض حججي، لكن يتملّكهم اليأس فيلجؤون إلى مُهاجمتي؛ بحثا عن مصالحهم وسلامتهم. إنهم سياسيون يتخاصمون فيما بينهم، وفي اطلاعهم وزيارتهم للهند لا يهدفون إلى إجراء تحقيق صادق في المظالم القائمة، ولكن من أجل إثارة نزاعات جديدة تلحق العار بإنجلترا[3].

وينتقد بلنتْ العقليةَ الراديكالية في السياسة البريطانية قائلا: " إنّ السكانَ الأصليين – كما يسمونهم – جنسٌ من العبيد، متجعدين، غير سُعداء، ونحيفين بشكل

ينظر: تصور الشرق في كتابات الرحالة البريطانيين في العصر الفكتور.. ص 151. م.ن.

1 م.ن

2 أساطير أوربا عن الشرق. 150

3 Ideas about India., wilfrid Blunt, kegan paul, London, trench, & Co.l, paternoster Square. 1885. p. 21..

رهيب، وهذا يتمثّل أيضاً في العبوديةِ المصرية التي يفرضونها. إنّ إيماني بالمؤسسات البريطانية يشعرني بأنها ستتلقى ضربة مباشرة، لأنَّ هذه الشعوب تعيش حالة مأساوية وستنفجر عاجلاً أم آجلا. إنّ حجة تطوير الهند تفضحها الممارساتُ التعسفية التي تشهدها تحت طائلة الاحتلال البريطاني. وهكذا ممارسات ومعدلات فقر متدنية ستحولهم إلى أكلة لحوم البشر، ولا أفهم كيف تنهب بريطانيا أموالهم وهم يتضورون جوعاً في مقابل ما تلقي عليهم من قذائف"[1].

وفي كتاب بلنت (التاريخ السري للاحتلال الإنكليزي لمصر Secret History of the English Occupation of Egypt) تفصيلاتٌ عن مستوى الاعتداء والإجحاف الذي طال الشعب المصري تحت نير الاحتلال، لكن ذلك الظلمَ مسكوتٌ عنه فيما كتبه كثير من الرحالة؛ وأغلبهم أمّا مغرمون بشرق خيالي يستجيب لنزواتهم أو هو مجتمع متخلفة؛ فيمعنون في تضخيم تخلفها ليسوّغوا لأنفسهم ما يفعلونه وما يبثونه من أفكار وتصورات[2].

References

- Ibrahim Mustafa and others, **The Intermediate Dictionary**, Islamic Library for Printing and Publishing, Türkiye, pg.9. (Dn). Dr.. T),
- , Hassan Shehata **The Self and the Other in East and West,** Images and Problems, p. 17. Dar Al-Alam Al-Arabi, 1st edition, Cairo, 2008.
- New Fontana **Dictionary of Modern Thought**, The Other, The, Oxford. Third Edition, (1999).
- , d. Abdel Moneim Al-Hanafi **The Comprehensive Dictionary of Philosophy Terms,** pg. 29. I 1. Madbouly Library, 2000.
- Sexual perceptions of the Middle East. The British, the French and the Arabs. Derek Hobot. Pg: 15. Translation. Nasser Mustafa, 1st floor. Abu Dhabi Book Authority. 2009.

1 م. ن.

2 ينظر: التاريخ السري للاحتلال الانكليزي لمصر. رية شخصية للأحداث. ولفريد سكاون بلتن. ترجمة: صبري محسن. المركز القومي للترجمة. ط1. القاهرة. 2010.

- The development of the image of the Ottoman other in the writings of European orientalists and historians. Muhammad Ali Muhammad Afeen. Mesopotamian etiquette. Iraq. Issue: 87. 2021.
- Abdul Rahman Badawi. **Encyclopedia of the East**. P. 88. House of Knowledge for Millions. Beirut. i3. 1993.
- The Eastern Roots of Western Romanticism. Faris Aziz, the teacher. p.97. Al-Rafidain Journal of Etiquette. Issue 82. University of Mosul. Iraq. 2020.
- Mohsen Jassim Al-Musawi. **One Thousand and One Nights in English Literature Theory**. Pg: 23. Publications: National Development Center. Beirut. I 1. D.T.
- German traveler Gustav Nachtegal 1834-1885 and his vision. to the Arab presence. Mr. Dr. Emad Eddin Ghanem. Journal of Documents and Manuscripts - Libyan Center for Archives and Historical Studies. p. 13. 2008.
- Gerard Leclerc **Anthropology and Colonialism**.. pp. 17-28. Translated by: Gord Ketoura. University Foundation for Studies. i2. Beirut. 1990.
- Toni Morrison **The Image of the Other in Literary Fiction**. Introduction Translated by: Muhammad Meshbal. p. 14. I 1. Knowledge Treasures House. Oman. 2018.
- Rana Qabbani **Message to the West**. pp. 93-94. Translated by: Salah Kabbani. Al-Ahali for publishing and distribution. Damascus. I 1. 2000.
- Mona Etienne and Eleanor **Leacock Women and Colonization: Anthropological Perspectives** p. 175. (New York, 1980).
- Abdul Aziz Abdul **Ghani Western Accounts of Travels in the Arabian Peninsula**. C 2. Pg. 21.? Saqi House. Beirut. 2013.
- Hussain Yusuf **Hussain The Perception of the Orient in the Writings of British Travelers in the Victorian era**. College of Education Journal. Wasit University. Issue: 37. 2019.
- . Laila Jabari **Representations of the East in French Travel Literature**. Humanities Journal. pp. 40-41. 2017. Beirut. Volume 1. On: The Perception of the Orient in the Writings of Victorian British Travelers. from.
- Heart Beguiling Arabic: The English Romance with Arabia. Kathryn Tidrick. Tauris Park Paperbacks 2009.
- The perception of the Orient in the writings of British travelers in the Victorian era. from.

- British Travelers and Egyptian 'Dancing Girls'. Locating Imperialism, Gender, and Sexuality in the Politics of Representation, 1834-1870 Robin Bunton. B.A. (Hons.), p.17. University of British Columbia, 2017
- Tancred was a Norman leader and one of the leaders of the First Crusade, and he participated in the battle of the siege of Jerusalem in 1099, after which he became Emir of Galilee in 1100, then ruler of the Principality of Antioch, and he died in Antioch in 1112 AD. look:
- Romance Duncan Heath, Judy Boreham. p. 25. Translated by: Essam Hegazy. I 1. The Supreme Council of Culture, Cairo, 2002.
- Travels in Arabia Deserta, Doughty, First published in 1964 by Routledge Kegan Paul Ltd, (New York: Dover, 1979), vol. I, p. 5
- The writings of European travelers are a source for the civilizational history of Medina from the beginning of the eleventh century AH until the end of the Ottoman era. Houria Abdel Ilah. PhD dissertation. P. 91. Umm Al-Qura University. 2013.
- Travels in Arabia Deserta, Doughty, (New York: Dover, 1979), vol. I, p. 11
- An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, Edward William Lane Vol. II; (London, Charles Knight & Co., 1836), p. 271.
- Islam Obscured The Rhetoric of Anthropological Representation. Daniel Martin p. 139. Newgen Imaging Systems Ltd., Chennai, India. First edition: January 2005
- The Secret History of the English Occupation of Egypt. personal view of events. Wilfred Scone Belten. Translated by: Sabri Mohsen. National Center for Translation. I 1. Cairo. 2010.

The Eastern Other in the Literature of European Travelers

Faris Aziz Hammoudi *

Abstract

The idea of this research (the eastern other in the literature of European travelers) is summarized first: in the historical definition of the mergence of the dualism of the ego and the other; With regard to their cultural dimension; Within the relationship of the East with

* **Asst Prof/Department of Arabic Language/College of Arts/University of Mosul.**

the European other. What is concerned with the East here is the Middle East.
Second: The research sheds light on the idea of the other in the writings of European travelers, with a set of achievements and perceptions contained in this literary trend, represented by letters, reports and books of European travelers about the East. Explaining how the literature of European travelers shortened the East and turned it into a dreamy given; It meets the need of the Europeans for some kind of fun and to stay away from the strictness of the material reality, but at the expense of the reality of the East, which many travelers have been striving to shorten, and focus on its romantic dimension and on the side of excitement; With the obliteration of the reality of the East and its real suffering at the time.

Third: The research seeks to reveal the volume of information, perceptions and attitudes left by the traveler's writings that worked to form a stable and deep theme about the East in the whole of the European mind, packed with ideological, religious and historical loads that established a negative dichotomy between East and West.

Keywords: religion, history, journey.